

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

للدين أثره فى حياة الفرد والمجتمع ، فهو يضع من المبادئ والقيم ما ينظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بالمجتمع الذى يعيش فيه .

والقيم الدينية ليست مبادئ نظرية ، ولكنها سلوك وعمل وواقع حياة ، وهى تتجه إلى تكوين الفرد الصالح ، فإذا تم ذلك تحقق قيام المجتمع القوى السليم ، الذى يتعاون أفراده على البر والتقوى ، وتستقر فيه دعائم الكفاية والعدل والسلام . والإنسان فى حاجة إلى أن يتعرف هذه القيم على صورتها الحقيقية ، حتى يستطيع أن يأخذ بالاتجاه القويم فى الحياة ، ويتزود من هذه القيم بالطاقات التى تمكنه من أداء رسالته فى المجتمع .

ذلك لأن القيم الدينية فى حقيقتها شىء ، وهى فى حياة كثير من المنتسبين للدين شىء آخر . فقد أساء بعضهم فهم القيم الدينية ، فى الفكر أو فى التطبيق ، كما أساء

بعضهم الآخر الحكم على هذه القيم ، لأنهم بنوا حكمهم على هذا التطبيق الخاطئ ولم ينظروا إلى الدين في حقيقته وفي تطبيقه السليم

ومن هنا كانت نقطة الضعف في أكثر ما يكتب - مثلاً - دفاعاً عن الإسلام ، أنه يأخذ الجانب السلبي في الدفاع ، أو يدافع عن الإسلام بطريقة النفي لا الإيجاب

إنك تقرأ كثيراً مما يكتبه الذين يتحمسون عن صدق وإخلاص دفاعاً عن الإسلام في مواجهة الموجات الفكرية والحضارية الغالبة في هذا العصر ، فتجد المنطلق الذي يصدر عنهم في دفاعهم أساسه نفي ما يلصق بالإسلام عن جهل أو هوى ، ولذلك يدور دفاعهم حول أمثال هذه المعاني :

- الإسلام لا يتعارض مع حرية الفكر .
- الإسلام لا يقف في طريق التطور .
- الإسلام لا تناقض بينه وبين العلم .
- الإسلام لم ينتشر بالسيف .

وهذا الأسلوب في الدفاع عن الإسلام مرجعه إلى عدة عوامل ، منها ما ترسب في وجداننا من أثر الشعور بتخلف العالم الإسلامي وتفوق الشعوب الغالبة ، ومنها الخلط في التصور بين الإسلام وواقع المسلمين ، ومنها ما ألصقه به الأعداء من مفسوس الأفكار ، وما حرصوا على تجريده من مدلوله ومعناه .

ولفذا كان هذا الأسلوب في الدفاع عن الإسلام محاو ، لإثبات الذات بطريقة عاجزة أو خاطئة .

طريقة عاجزة عن إدراك الحقيقة التي قام عليها الإسلام عقيدة وشرعة ، وتطبيقاً في مختلف البيئات الإنسانية ، وعلى امتداد عصور طويلة

وطريقة خاطئة في عرض هذه الحقيقة على الناس ، فكراً قوياً واعياً ، لا يستجدي الاقتناع ولا يتسوله بأسلوب الدفاع ، بل يفرض نفسه بمنطقه الذاتي على العقول والأفكار . وسلوكاً للفرد والجماعة يكون حجة ناطقة لا تحتاج إلى منطق الدفاع . ولكنها حجة للإسلام ظاهرة لا تحتاج إلى إقناع . إن قروناً طويلة قد أضافت إلى الإسلام ما ليس منه ، حتى اختلطت صورته في حياة أهله وفي أعين غيرهم من الناس .

ذلك إلى واقع المسلمين في كثير من العصور وكثير من الأقطار ، مما يتخذ الأعداء والجاهلون حجة على الإسلام وليس ظاهرة عرضية في حياة المسلمين . لهذا كان الأسلوب العلمي في عرض القيم الدينية فكراً وتطبيقاً ، هو الأسلوب الذي يعرض الإسلام مجرداً من كل زيف ، ويربط بينه وبين حياة أهله بمقدار التطابق بين العقيدة والسلوك . . .

وفي هذا الكتاب نقدم صوراً من القيم الدينية وأثرها في حياة الفرد والمجتمع ؛ مستمدة من مصادرها الأصلية في الكتاب والسنة ، ومن خلال التطبيق العملي والواقع الحي لهذه القيم الخالدة ، وفي ضوء ما كشف عنه العلم من حقائق تعمق الإيمان بالله ، وتؤكد هذه القيم في النفوس .

نقدمها للمجتمع العربي والإسلامي وهو يخوض معركة الحياة ويواجه مشكلات العصر ؛ ليستكمل بها مقوماته الذاتية ، ويتسلح بالعقيدة القوية والفكر المؤمن والسلوك القويم ، وليأخذ دوره ويحمل مسؤولياته في هذه الفترة المليئة بصراع المبادئ وتحديات القوى ، وليكون هذا المجتمع العربي والإسلامي الذي يضم مئات الملايين في مختلف أرجاء الأرض ، والذي تجمعته عقيدة واحدة حول قبة واحدة ، هو بحق المجتمع الذي وصفه الله - تبارك وتعالى - بقوله :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (١) .

ولماذا كانت القيم الدينية هي وحدها الكفيلة بسعادة الإنسان وإرساء دعائم
المجتمع الذي تتوافر فيه الكفاية والعدل والسلام ؟
ذلك لأنها وحى من عند الله الذى خلق الإنسان وأكرمه بالخلافة على هذه
الأرض . فهو - جل جلاله - أعلم بما يصلح عليه أمر الإنسان وحياة المجتمع :

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟) (٢) .

ومن هنا كانت كل محاولات الفكر الإنسانى - خارج نطاق التشريع الإلهى -
قاصرة عن تقديم المنهج المتكامل لحياة الإنسان والمجتمع حياة سعيدة فاضلة . ومن
هنا أيضاً نجد أكثر الشعوب المتحضرة بهذا المقياس ، هى أكثرها تعرضاً للتمزق
النفسى والانحيار الخلقى واندفاعاً نحو هاوية الصراع بين الأفراد والشعوب .

° ° °

وحين بدأت الأمة العربية تأخذ طريقها لاكتشاف ذاتها وتأكيد انتمائها ، كان
لابد من أن تهتدى إلى أصولها العريقة فى الفكر الحضارى المستمد من شريعة الله .
ولم يكن هذا الطريق ميسراً للرواد من سالكيه وللطلّاع المكافحة فى كل ميادين
التحرر وإثبات الذات ، لأنهم كانوا يشقون طريقهم وسط ركام ثقیل من
الرواسب الفكرية التى فرضت على الأمة العربية خلال قرون متعاقبة ، ومنها
ما فرضه المستعمر خلال العصور الأخيرة ، وبمقدار ما فرضه ودسه من هذه الأفكار

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٤ سورة الملك .

للدخيلة ، فإنه سلب الأمة العربية الكثير من مقوماتها الأصيلة فكانت ضربته في اتجاهين نحو هدف واحد .

وكان أخطر ما في الأمر أن استولى الوهم على الأمة العربية في عصور الاستعباد والتخلف ، والشعور بالانبهار إزاء هذه الأفكار والقيم الأجنبية ، والاعتقاد بأنها السبيل الوحيد لبلوغ ما وصل إليه المستعمر من قوة وغلبة وحضارة . وقد وقع في هذا الوهم الكثيرون ، ومنهم بعض قادة الفكر وحملة الأقلام ، حتى إن أحدهم لم يتردد عن القول بأننا إذا أردنا أن نبليغ ما بلغه العالم المتحضر فلا بد أن نأخذ المدنية الغربية بما فيها من خير وشر .

وهذا وهم لم تقع فيه شعوب أخرى عرفت طريقها السوي لبلوغ أهداف التحرر والتقدم ، مثل الشعب الياباني الذي لم يمتعه التزامه بقيمه وتقاليده وأسلوب حياته ومكونات شخصيته ، عن أن يأخذ من أسباب التقدم الحضاري ما جعله من أقوى الدول الصناعية وأغناها ، وأن ينافس الدول المتحضرة الكبرى في ميادين الإنتاج والاقتصاد .

ولابد أن نشير هنا إلى أن كثيراً من الأفكار الهدامة المدمرة لكيان الشعور ، هي وليدة خطة صهيونية تضمنتها « بروتوكولات حكماء صهيون » وهي أفكار تقوم على تدمير إنسانية الإنسان عن طريق الإلحاد وعبادة المادة والانغماس في اللذة وتملق الغرائز الهابطة على مختلف الصور ، وتسخير المخترعات الحديثة لتحقيق ذلك : السينما والإذاعة المسموعة والمرئية ، وما تحمله من الكلمة والصور واللحن ومختلف وسائل الإخراج ، إلى غير ذلك من خطط الإفساد التي تنفذها المؤسسات الأخرى ومنها بيوت الأزياء ودور الإغراء والإغواء التي تلبس أقمعة الفنون . وكذلك كانت الصهيونية وراء ترويج كل فكرة أو نظرية هدامة ، وتأليه أصحاب هذه النظريات والأفكار : دارون ، ماركس ، فرويد نيتشه . . .

وغيرهم ممن بدأت تتكشف عورات أفكارهم وتسقط دعائم نظرياتهم وتفقد ما كانت تبهر به الأبصار والعقول من بريق .

ولقد أصبح جلياً ما لهذه الخطة « الجهنمية » من أخطار تهدد كيان الأمم والأفراد من الداخل ، وتقضى عليها بالانحلال والسقوط ، وتفرض عليها الهزيمة في كل ميدان . . .

ولهذا كان لزاماً على الأمة وهي تستجمع قواها وتعيد بناء كيائها وتواجه تحديات أعدائها ، أن تستمد من مقوماتها الأصيلة عناصر هذه القوة ولبنات هذا البناء وأسلحة هذه التحديات .

وفي القيم الدينية معين لا ينضب من هذه المقومات ، وذخيرة لا تنفد لتحقيق هذه الأهداف . . .

° ° °

وثمة مزالق يقع فيها البعض بحسن نية وهم يحاولون أن يحصلوا على تصور « مقنع » للقيم الدينية بأسلوب العصر .

منهم أولئك الذين يحاولون باسم التفسير العلمي للقرآن ، تأويل بعض آياته أو تحميلها بما تؤيده بعض الشواهد العلمية . وتلك قضية أمكن حسمها في غير عناء ، واستدلالات بالمنطق العلم نفسه الذي يقوم على الفروض والتجارب ، ويخضع لتغير المقاييس واختلاف النتائج . مما لا يعطى حكماً قاطعاً نكتب له القداسة والخلود . . .

ومنهم أولئك الذين يحاولون أن يرجعوا بعض المصطلحات والنظريات العصرية إلى أصول لها في الإسلام ، فنسمع من يتحدث منهم عن « اليسار في الإسلام » أو « ديمقراطية الإسلام » أو « اشتراكية الإسلام » إما دعماً لهذه النظريات بمنطق الدين ، وإما بقصد عرض الدين في زى عصرى حديث !

ووجه الخطأ فى هذا الأسلوب أن الإسلام منهج متكامل له أصوله ومبادئه ، وقد يلتقى مع كثير من المبادئ والنظريات التى تقدر كرامة الإنسان وحرية ، ولكنه يمتاز عنها بشموله وبأنه منهج « إلهى » يمد الفكر الإنسانى بعطائه السخى الذى يلبى جميع احتياجاته ، ويحفزه إلى مواجهة الحياة على هدى هذه الأصول والمبادئ ، لبلوغ الآفاق التى يرقى إليها الجهد الإنسانى فكراً وسلوكاً . وليس الأمر على الصورة الأخرى التى يستمد فيها الدين أو يتقيد بنظريات تتناول جانباً أو جوانب محدودة من الحياة ، وتتعرض من خلال التطبيق لكثير من التناقضات وضرورة التعديل والتبديل . . الأمر الذى يختلف اختلافاً جذرياً عن طبيعة المنهج الدينى الذى يتسم بالشمول والخلود .

إن أولئك وهؤلاء يحاولون أن يحاكموا الدين إلى هذه الأفكار ، أو إلى ما يقعون تحت سلطانه من أهواء . وقد حسم الرسول ﷺ هذه القضية بقوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

لا حرجاً على العقول ، ولكن رجوعاً إلى الحق الذى لا تفضل معه الأهواء ، ولا يصلح إلا عليه أمر الدنيا والآخرة .